

جمالية الأنا في شعر ابن الرومي

The Aesthetic of the Ego in the Poetry of Ibn al-Rumi

مسعود بن ساري

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميله (الجزائر)، m.bensari@centre-univ-mila.dz

النشر: 2023/12/31

القبول: 2023/12/31

الاستلام: 2023/07/20

ملخص:

أخذت الأنا الشاعرة دورا محوريا في التشكيل الشعري لابن الرومي، وشكلت مسألة الحضور البارز للأنا ظاهرة في ديوانه الشعري، الذي لم يستوف الباحثون والدارسون ظواهره، إلى يومنا هذا، ليعبر عن تجربة الذات في الحياة، بتكرار لفظ الأنا، وتعدد معانيه ودلالاته، وثناء طرق نظمه في شعره.

ليصبح الأنا أنوات، محملة بمعان ودلالات نفسية، وقيم جمالية، بسبب تنوع القصد واختلاف السياقات، وخصوصية الأنا عنده، مثل أنا الفخر والثناء، وأنا العشق والنساء، وأنا السكر والانتشاء، وأنا الضعف والبكاء، وأنا المدح والإطراء، وأنا المسخ والهزاء، وأنا الرحلة والبقاء.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الجمالية، ابن الرومي، شعر ابن الرومي

Abstract:

The poet's ego took a pivotal role in the poetic formation of Ibn al-Rumi, and the issue of the prominent presence of the ego was a phenomenon in his poetic collection, whose researchers and scholars did not meet its phenomena, to this day, to express the experience of the self with life, by repeating the word ego, and the multiplicity of its meanings and connotations, and the richness of the ways it was organized in his poetry.

The ego becomes egos, loaded with meanings and psychological connotations, and aesthetic values, because of the diversity of intention and the different contexts, and the specificity of the ego has, such as the proud ego, the lover ego, the drunken ego, the weak weeping ego, The praising and the thankful ego. The satirical ego, and the traveling and the resident ego .

Keywords: ego, aesthetic, Ibn Rumi, Ibn Rumi poetry

1. مقدمة:

تجلت؟ ولماذا؟ وما هي جمالياتها؟ وما هي

دوافعها النفسية؟

في هذا السياق البحثي تبرز الإشكاليات الآتية:

وتفترض الدراسة أنّ مقارنة النصوص

لمماذا أسرف ابن الرومي في توظيف ضمير الأنا في

الشعرية القديمة بمناهج حديثة تعطي نتائج

شعره؟ وكيف نوّع بين استعمال الضمير

جيدة. وأن المقاربة النفسية الجمالية من أصلح

المنفصل أنا، وتاء المتكلم، وياء المتكلم؟ وما

المناهج لدراسة النصوص من هذا النوع.

دلالة ذلك؟ وما هي أنواع الأنوات عنده؟ وكيف

فتضخم عنده الأنا وتعدد وتلون بألوان المعاناة، معاناة الفقر المدقع، ومعاناة الفقر الموجد، ومعاناة الكيد والتجاهل، ومعاناة التقليل من شاعريته، ومعاناة رمية بالموسوس والمتشائم والحاسد والمتطير، -وإن كان كذلك- . فالعبقريّة لا تولد إلا في رحم سلوكات غريبة وشاذة، كما أثبتت لنا سير العباقرة وحيواتهم. "حتى قال بعضهم إن حقدّه سبّب عبقريته، وقال البعض الآخر: هذا يعود إلى اضطراب في عقله، ومهما يكن من الأمر فإن من الحقائق الواضحة أن العبقرية والجنون مظهران لشيء واحد، هو اختلال التوازن العقلي" (خليل، 1963، صفحة 101).

لقد جعل ابن الرومي استراتيجية لمواجهة ذلك الشقاء، لينقذ أناه وذاته، ويحيا حياة كريمة، وينعم باللذة، وينهل من أطايب الحياة كلها؛ "والحياة عنده لذة يتطلبها، واللذة عنده شهوة إلى الجمال، يتبعه أينما بدا له، فيستعذبه في وجوه النساء والغلمان، وفي أصوات المغنين والقيان، وفي الطبيعة وما عليها من صور وألوان" (سيليا، 1956، صفحة 30)، ذلك ابن الرومي الإنسان.

2. ترجمة الشاعر

هل حري بنا أن نعرف هذا الشاعر؟ وهو معروف مشتهر، ف"من الأدباء من لا يحتاج إلى شيء من ذلك، فاسمه خالد، وأدبه معروف، وشخصيته متميزة" (نصار، 2003، صفحة 5). ولكن لا بأس أن نقول فنختصر، فإن في ذلك لذكرى وعبرا، إنه: "أبو الحسن علي بن العباس بن جريح، وقيل جورجيس، المعروف بابن الرومي مولى عبید الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب"

أما من حيث المنهج فنجد حضورا للمنهج التاريخي، ونجد المنهج الفني الجمالي، ثم النفسي الذي حللنا على ضوءه الأنوات، من حيث أنواعها. ودوافعها.

ويهدف المقال إلى كشف مظاهر الإبداع الذاتي الشعري عند ابن الرومي، وأسرار عبقريته، والمؤتلف والمختلف في شعره عن غيره. وقد شغل ابن الرومي القدماء والمحدثين، فصنفوا فيه، وأشهرها كتاب: ابن الرومي حياته من شعره للعقاد، وكتاب: ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره لإيليا سليم الحايي.

فلقد كانت لابن الرومي ذاته وحياته كما يهوى هو ويحب، ولم يكن ممن يسعون للألقاب، ويتكالبون على المناصب والمراتب، وتغيب ذواتهم في الخلفاء والأمرء، ونسج لنفسه عالمه الخاص، وفصله على قَدِّ مزاجه وخياله، ورؤاه. ثم عاش فيه شاعرا متوحدا، لا يصله بعوالم عصره سوى خيوط رفيعة شفافة، أقواها: حسه وذائقة الجمال فيه" (شرف الدين، 1984، صفحة 382). وشكل عالما موضوعه ذاته وأناه، ووسيلته شعره وعبقريته.

وإلى جانب فلسفته هذه في الحياة، وموقفه منها، كان قليل الحظ بين أبناء عصره، يسعى نحورزقه فلا يحصله، ويجتهد للتكسب فلا ينال قوت يومه. ويطلب الإنصاف، فلا ينال غير التهمك والتندر منه؛ لذلك نشأ حاسدا لذوي النعمة هاجيا، يتمنى الغنى لذاته، ليقتل الفقر والفاقة، ولينعم بالملذات والترف ففشل. فعاتب وكره وحسد حتى أصبح متطيرا معقدا متشائما موسوسا، لا يرى في الناس سوى الأذى والشر والفساد والرذيلة" (سعد الدين وعبد الرحمن، 1962، صفحة 282).

أخاه ابن الرومي معه، لينهل من أدب أولئك ومن سلوكاتهم كذلك. "نال طرفا صالحا من علوم العربية كاللغة والنحو والأدب ومن العلوم العقلية والطبيعية، كما ألم بأخبار الفلاسفة ويعلم الكلام، ولكن من التَّمَحُّل البعيد أن ننسب إليه معرفة باللغة اليونانية أو اللغة الفارسية، وكان من كتاب الدواوين، ولكن الشعر غلب عليه، فلم يعرف إلا بالشعر" (فروخ، 1981، صفحة 340).

صور لنا ابن الرومي مرحلة شبابه في شعره لاهيا بذخا، لاهئا وراء الطعام والشهوات والملذات، من الشراب والمغنيات، متحسرا على تلك الحقبة في شيخوخته. وقد تزوج مرتين، وأنجب من زوجته، ولكن سرعان ما فقد أهله جميعا، حيث مات والده ثم أمه وخالته، ثم أخوه الأكبر المعيل، ثم أولاده الثلاثة، ثم زوجته الأولى. فعانى الشاعر مأساة نفسية كبيرة، وفاقة وحاجة، وفوضى الحياة الاجتماعية والسياسية والطبقية، اجتمعت كلها عليه، ففضى معظم أيامه في عزلة وانزواء، وتفجر شعرا خالدا كما سنرى.

توفي ابن الرومي في جمادى الأولى سنة 283هـ، ودفن في مقابر باب البستان، "وَكَانَ سَبَبَ مَوْتِهِ أَنَّ الْوَزِيرَ أَبَا الْحُسَيْنِ الْقَاسِمِ يَخَافُ هَجْوَهُ، وَفَلَتَاتِ لِسَانَهُ بِالْفَحْشِ، فَدَسَّ عَلَيْهِ ابْنَ فِرَاسٍ، فَأَطْعَمَهُ خَشْكِنَانِجَةَ مَسْمُومَةً وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ، فَلَمَّا أَكَلَهَا أَحْسَسَ بِالسَّمِّ فَقَامَ، فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ فَقَالَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي بَعَثْتَنِي إِلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: سلم على والدي. فَقَالَ مَا طَرِيقِي عَلَى النَّارِ. وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَأَتَى مَنْزِلَهُ وَأَقَامَ بِهِ أَيَّامًا وَمَاتَ" (أبيك، 2000، صفحة 14). وهكذا نرى العجائبية والظرافة حتى في قصة موته.

(ابن خلكان، 1900، صفحة 358). وتقتضي صلة الولاء أنه أسلم على يد موله عيسى بن عبيد الله، وأنه أعتقه نظير ذلك. وإن موله هذا كان قريبا للعباسيين، حيث كان ابن عم هارون الرشيد، وأخا زوجته المشهورة زبيدة (روفون، 2011، صفحة 12).

ولد ابن الرومي في بغداد (02 رجب 221هـ = 21 جوان 836م) من أب رومي وأم فارسية، وقد أثبت ذلك في بعض شعره حيث يقول: (ابن الرومي، 2003، صفحة 2356):

فرس خَوُولِي وَالرُّومُ أَعَامِي

عاصر ابن الرومي العصرين العباسيين الأول والثاني من القرن الثالث الهجري، الذي يصفه العقاد بأنه: " كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة، كان عهد اليقين والإيمان، وكان عهد الحرية والشكوك، كان أوان النور وكان أوان الظلام، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط: بين أيدينا كل شيء، وليس بين أيدينا شيء قط" (العقاد، 2014، صفحة 13). وهو يقصد بأن بغداد كانت عاصمة الدنيا آنذاك، ومقصد الناس جميعا، وحلم كل من يطمح أن يعيش عيشة الرخاء، والشهرة، في جميع مناحي الحياة. وفي الوقت نفسه كانت مأوى كثير من المتشردين، والمفلسين، أمثال ابن الرومي.

حُرِمَ الشاعر رعاية الأب طفلا صغيرا، حيث توفي أبوه، فكفلته أمه وأخوه الأكبر، وأنفقوا عليه مما ترك أبوه من مال. سرعان ما أتلفه أخوه الأكبر في جلسات اللهو والخمر، وإن كان مواظبا على جلسات العلماء، ومدمنا على معايشرة الأدباء والظرفاء، ومجبا للأدب ومصاحبا

3. بين الجمال والجمالية

منهجاً جمالياً لدراسة النص الإبداعي من حيث سعيه إلى تكريس معايير الجمال وقواعده.

وهي من سمات العلوم المعيارية، وهو ما أدى ب(كانت) للقول أنه: "لا يوجد علم للجمال، ولكن هناك نقد جمال" (كانط، نقد العقل المجرد، 1965، صفحة 67). على اعتبار أن قواعد الجمال يتم الوقوف عليها بعد تحقق العمل الفني، الأمر الذي يعيق صياغة قواعد جمالية مسبقة على أعمال فنية، لم تر النور بعد، ليعتمد على قوانين الجمالي في الأثر الإبداعي بعد صياغة الأثر نفسه. وهو ما يسمح لنا بالوقوف على جمالية الأنا عند ابن الرومي.

4. الأنا والمنهج النفسي

يطرح المنهج النفسي ثلاث مجموعات من الأسئلة، ويحاول تفسيرها والإجابة عنها وهي: أولاً: كيف تتم عملية الخلق الأدبي من الوجهة النفسية؟ وما العناصر الشعورية وغير الشعورية فيها؟ وما الحوافز الداخلية والخارجية منها؟ ثانياً: ما دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه؟ وما التطورات النفسية لصاحبه من خلال النص الأدبي؟ ثالثاً: كيف يتأثر الآخر بالعمل الأدبي عند مطالعته؟ وما نسبة التأثير الناشئة من العمل الأدبي وما نسبة التأثير الناشئة من ذات القارئ (قطب، 2003، الصفحات 207-208)؟

اجتهد سيغموند فرويد Sigmund Freud في وضع الأسس العامة للقراءة النفسية للأدب وحاول على ضوء هذه الأسس أن يضع تفسيراً لظاهرة الإبداع الفني بواسطة فكرة "التسامي النفسي" لدى المبدع، وهي الخاصية التي تدفعنا إلى قراءة الأدب، والشعور بجماله أو النفور منه، وفق بنية عاطفة كل قارئ، ولهذا السبب نجد لها

يرى كثير من الدارسين المحدثين أن النظرية الجمالية برمتها نظرية غربية في مصطلحها ومفهومها النقدي؛ ولا يمكن إنكار هذه الحقيقة، فلفظ (الجمالية) مصطلح حديث، وهي مصدر صناعي يقابل الجمالي. وقد جاء في معجم المصطلحات أن الجمال هو: "حُسْنٌ، مَلَاخَةٌ، وسامة، بهاء، وحالة ما هو جميل، هو ما يثير فينا إحساساً بالانتظام والتناغم والكمال. وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة، أو في أثر فني من صنع الإنسان، كما نجد أن الجمال: صفة تلحظ في الأشياء، وتبعث في النفس سروراً ورضاً (المهندس، 1984، صفحة 138).

فالجمال أو الجميل تطلق على كل ما يبعث في النفس شعوراً باللذة والسرور والإعجاب، وبذلك يهتم علم الجمال، بالدوق الفني، ويبحث في شروطه ومقاييسه، مطلقاً أحكاماً قيمة متعلقة بالآثار الفنية، لنستشف منه فهم الذات الشاعرة، المشتركة في مبادئها بقيم جمالية، تعكس أسس العواطف النبيلة، والقيم الإنسانية؛ ومع المتلقي لتمييز الجميل في تشكيل الأنا عند ابن الرومي.

وإذا نظرنا إلى مفهوم الجمال أو الجمالية بالمعنى الاصطلاحي نجدها "تمثل رؤياً خاصة للفن، وطريقة لملامسة ما يوجد فيه من جمال، لأجل تذوق فني يكشف حقيقة ما لذلك النص من جمال، وأثاره على (..) الأفراد الآخرين المتذوقين" (خرفي، 2005، صفحة 21). وهو ما يقودنا إلى الكشف عن جمالية النصوص الشعرية من حيث الدقة والإتقان فضلاً عن انتظام التراكيب والألفاظ والإيقاع، وبهذا يصبح هذا المصطلح

1.5 أنا الفخر والثناء:

إن الباحث الفعلي للفخر عند ابن الرومي هو الشعور النفسي بتلك القوى العظيمة الكامنة في ذاته، والرغبة في إبرازها، والباحث الثاني إحساسه بأن المجتمع ما قدّره حقّ قدره، إذ قالوا ما هوبعاقل، بل مجنون، ومطير، وحاسد، وهجاء سليط اللسان؛ ولربما تعرضت الذات الشاعرة إلى المنافسة والانتقاص منها، والتقليل من احترامها، والعبث بها؛ هنا يأتي الفخر والثناء على الذات، ويأتي "دفاع الأنا (..) حتى يحيي نفسه من الانهيار، ويحقق لنفسه التكامل والسلامة" (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 197). لم يعول ابن الرومي في فخره على كثير، كقوة البدن، أو جمال المظهر، أو شجاعة الميدان، أو كرم البذل والعطاء. لم يعول سوى على نسب تنازعت ثلاثه أصول: أبوة رومية، وأمومة فارسية، ونسب بالولاء عربية عباسية. وقد أشاد بنسبه الرومي خاصة، وبنسبه العربي ولأء على الأخص، وتجاهل نسبه الفارسي إلا نادراً، رغم تمكن الفرس في دولة بني العباس، في الدواوين والجند وخدمة السلطان؛ إذ يقول (ابن الرومي، 2003، صفحة 2056).

كَيْفَ أُغْضِي عَلَى الدَّيْنِيَةِ وَال...

فُرْسُ حَوْوُلِي وَالرُّومُ أَعْمَامِي

وقد تتوّجت من ولاء أبي الأ...

عَبَّاسٍ تَاجًا يَسْمُو بِهِ السَّامِي

إن فضل النسب لا يقف عند هذا الحد -في زمننا-، فعلم الوراثة أثبت أن المولود يرث الصفات الجسمية والعقلية والنفسية مناصفة من والديه؛ وللرومان -كما نعلم- فضل "في كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق؛ في الفلسفة، والرياضة، والفلك، في علوم الطبيعة والحياة

بعدا اجتماعيا، وأفكاره الرئيسية التي تقوم عليها آراؤه السيكولوجية هي: الكبت والرغبة الجنسية ومرحلة الطفولة.

أوضح فرويد Freud أن الناس لا يقولون أو يفعلون شيئاً مصادفة من غير قصد، فالنشاط العقلي غير المدرك يؤدي إلى مثل تلك المصادفات، كزلة اللسان مثلاً، أو نسيان موعد، وحسب ما يقول به فرويد، يمارس العقل نشاطاً غير مُدرك أكثر من المُدرك. وقسم العقل إلى ثلاثة أقسام: الهو والأنا والأنا الأعلى (فرج وآخرون، د.ت.ط، الصفحات 63-64-477). و(الشويخات وآخرون، 1999، صفحة 134) وهكذا فالأنا من صميم الاتجاه النفسي الفرويدي، الذي نعول عليه في هذه المقاربة، كما سنفيد من آراء تلميذه أدلر Adler، صاحب مدرسة: علم النفس الفردي أو علم النفس الأدلري (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 321)، في تفسير التجربة الشعرية عند ابن الرومي، بأبعادها الإبداعية النفسية والجمالية.

5. تظاهرات الأنا وجمالياتها:

ولربما سأل سائل: ما علاقة النفسي بالجمالي؟ وكيف يمكن الجمع بينهما في تحليل الخطاب الشعري معاً؟ فنقول: إن علم الجمال فرع من علم النفس، ولدينا اليوم: (علم النفس الجمالي)، وهو: "فرع من فروع البحث في علم النفس، ظهر على يد فخر G.T Fechner والذي يهتم بالتذوق وبالشكل والعلاقات المكانية والألوان وتكوينها (..) بتطبيق طرائق علم النفس التجريبي على المشكلات المتعلقة بالفنون وأثر الدوافع على إدراك الصور والأشكال" (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 317). وهذه تظاهرات الأنا وجمالياتها فيما يلي:

طَبْرُ سَلِيمَانُ قَاهِرُ
المرَدَّة

ما بلغت بي الخطوب رتبةً من ...
تضم عنه الكلاب والقردة
والحقيقة أنه كذلك، شهد له بشاعريته،
القدمي والمحدثون. قال ابن رشيقي: "أما ابن
الرومي فأولى الناس باسم شاعر؛ لكثرة اختراعه،
وحسن افتتانه" (القيرواني، 1981، صفحة
286). وقال ابن خلكان: "الشاعر المشهور
صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب،
يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من
مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى
حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقي فيه بقية" (ابن
خلكان، 1900، صفحة 358). وقال آخر: "أما
ابن الرومي فأغرب ما فيه طبيعته الفنية،
وقدرته الفذة على أن يجعل من كل شيء شعرا
قريب التناول، حسن التصوير، بعيدا عن
الكلفة" (سعد الدين وعبد الرحمن، 1962،
صفحة 270)، وقال العقاد أكثر من هذا (العقاد،
2014، الصفحات 9-11).

أشاد ابن الرومي بشعره لأنه لم يُعْطَ مقابلا
مكافئا له، يحفظ به ماء وجهه من التسول،
"وقد كان (..) فنه الشعر، (و) الشعر عنده أحق
ما في الحياة بالعناية والإكبار، وقائله أولى الناس
بأن توفر له أسباب الحياة التي يتطلبها فنه، وهو
(..) أحق مخلوقٍ أو شاعرٍ بذلك، فمن حقه على
الناس أن يرزقوه إذا لم يستخدموه" (المازني،
2010، صفحة 245). ولم يكن الشعر صنعته
الوحيدة التي يتقنها، فقد قيل: إن الشعر أقل ما
كان يحسنه، بمعنى أنه كان يتقن صناعات أخرى
غير الشعر، مثل الخطابة، والكتابة، والحكمة،

والطب، في الأدب، في التاريخ، في السياسة، في
الفنون الجميلة" (أمين، 2012، صفحة 235).
أما الفرس الذين تعربوا فقد ملأوا الدنيا في
العصر العباسي علما وحكمة وشعرا ونثرا،
والفرس من قديم ميلون إلى الإفراط في الشراب،
والإفراط في الغناء واللهو والترف (أمين، 2012،
الصفحات 175-176).

فإذا تأملنا ابن الرومي، وجدنا له حظا وورثه
من ثقافة الروم والفرس، فمن الروم نلمس
تفلسفه وحكمته، ومن الفرس ورث إفراطه في
الأكل والشرب وحب الغناء واللهو. ولا ريب أنه
اكتسب من تعربه قيم العروبة والإسلام، ولكن
أصوله تجاذبته، فلم يلتزم بالدين التزم
الصادقين، ولم يفارق مجالس القيان والشراب
واللاهين صغيرا أو كبيرا. أكَدَّ ذلك طه حسين إذ
يقول: "وابن الرومي كان قريبا جدا من أصله
اليوناني، لم يبعد العهد به فتضعف وراثته، ولم
يتأثر بوراثات أخرى، فهو إذن بطبيعته وفنه،
مخالف كل المخالفة لكثرة الشعراء" (حسين،
2013، صفحة 127)، السابقين له والمعاصرين.
ثم يشيد ابن الرومي بشعره وشاعريته
مفتخرا؛ ومخاطبا الأخصى الذي انتقد شعره،
وانتقص منه؛ فيقول: إن شعره عميق لا يُنال إلا
من تأمل، ولا يُفهم إلا من إنسان ذي فهم وعقل
ذكي، ومن لم يفهم شعره فاعلم أنه حيوان وليس
إنسانا. قال الشاعر (ابن الرومي، 2003، صفحة
734).

شعري شعري إذا تأملته ال ...

إنسان ذو الفهم والحجا عبده

لكنه ليس منطقاً بعث ال ...

لَهُ به آيةً لمن جحدَه

ولا أنا المفهم الهائم وال ...

حيث القوة والعنفوان وتأجج غريزة الجنس؛ ونعتقد أنه كان الدافع الأساسي في غزلياته، نضيف إلى ذلك حسه الشعاري المرفه بالجمال أينما كان. وكيفما كان: "وصلة ابن الرومي بالنساء تظهر في أربعة أصناف: الزوجة، والقينة: وهي: جمع قيان، وهي طبقة اجتماعية من النساء تدرين على الترفيه في العصر الأموي والعباسي والأندلسي، وغلب اسم القينة على المغنية-، والعشيقه، وقريبة المهجوزة كانت أو أختا أو بنتا أو أما. وقد خاطب كل صنف منهن خطابا شعريا مغايرا" (الرحمن، 1977، صفحة 22).

أسرف ابن الرومي في مدح القيان الجميلات، المحسنات للغناء، وفي التغزل بهن، كما هجا منهن دميمات الوجوه قبيحات الصوت؛ وهو في نقده لهن يبدو عارفا بالأصوات والمقامات، خيرا بتأثير الطبقات والمعازف والحركات أثناء الغناء. تعلق الأنا بالقينة صوتا ومنظرا وحركة وعزفا وكلمات، فعشقها وهام بها. قال في مغنية اسمها وحيد الخفيف (ابن الرومي، 2003، الصفحات 762-765):

يا حَلِيلِيَّ تَيَّمَّتْني وَحِيدٌ ...

فَقُودِي بها مُعَيَّي عَمِيدُ
تتَعَيَّي كأنها لا تُعَيَّي ...
من سكُونِ الأوصالِ وهي تُجيدِ
وأرقُّ الدلالِ والعُججُ منه ...

وَبَرَأهُ الشَّجَا فكَادَ يَبِيدُ
وَتَرَّ العُزْفِ في يَدَيْها مُضَاهٍ ...
وَتَرَّ الرِّحْفِ فيه سَهْمٌ شَدِيدُ
حُلِقَتْ فِتْنَةٌ غِنَاءً وَحُسْنًا ...

ما لها فيهما جميعاً نَدِيدُ
مَنْظَرٌ مَسْمُوعٌ مَعَانٌ مِنَ اللّهِ ...

والبلاغة وغيرها مما صرح به في قوله: (ابن الرومي، 2003، صفحة 31):
إن أكن غير مُحسِنٍ كلِّ ما تطُّ ...

لُبُّ إني لَمُحْسِنٌ
أجزاء
فمتى ما أردتَ صاحبَ فحصٍ ...

كنتُ ممن يُشاركُ الحكماءَ
ومتى ما أردتَ قارضَ شعرٍ ...
كنتُ ممن يُساجلُ الشعراءَ
ومتى ما خطبتَ مني خطيباً ...
جلَّ خطبي ففاق بي الخطباءَ
ومتى حاول الرسائلُ رُسلي ...

بَلَّغْتَنِي بلاغتي البُلغاءَ
وفي مقام آخر نجده متعففا عن الرغبة في المال والغنى، ساعيا إلى المجد والعلو. يقول ذلك وهو أحوج الناس إلى المال والغنى، قال: (ابن الرومي، 2003، صفحة 1105):
وما أنا إلا محرز المجد والعلو ...

وذلك كزبي لا اللجين والتبر
وهكذا يبدو لنا أن ابن الرومي "لم يطلب ملكا ولا حكما ولا رياسة، وإنما طلب السلامة من الناس، وإنصاف أدبه وفضله وفنه، وإعطاءه حق ذلك الأدب والفضل مما في أيدي الوجهاء والرؤساء والأمراء، من أموال الله والناس التي كثيرا ما كانت تهب نهبا" (شكري، 1939، صفحة 244). ويبدو الأنا في مقام الفخر متضخما ومتعاليا فوق كل الأنوات والذوات الأخرى، يرى أن فضل مدحه على ممدوحه أكثر مما يجنيه من مدحياته مهما غلا.

2.5 أنا العشق والنساء:

ارتبط أنا العشق وقصص المغامرات مع النساء عند الشاعر بالجسد وبمرحلة الشباب،

وأصفي وأجدر بقيمة الإنسان. وهنا يشترك الحب الكبير مع الشعور الديني؛ إذ كلاهما يبحث عن الصفاء، وكلاهما ينشد الجمال الأعلى" (عبد الله، 2020، صفحة 60)، والمودة والرحمة والسكينة، والبنين.

والثابت أن ابن الرومي تزوج مرتين، تزوج الأولى وأنجب منها ثلاثة أولاد، ماتوا جميعاً أطفالاً، كما ماتت أمهم، فتزوج ثانية ولم ينجب منها. ولم يذكر زوجته الأولى إلا راثياً باكياً عليها بإخلاص، ولم يذكر زوجته الثانية إلا حين طال مكثه أرمل، فطلب مساعدة قصد الزواج. وسنذكر ذلك لاحقاً. ورغم أن حضور المرأة في شعر ابن الرومي -كما رأينا-، فإن كثيراً من العابثين يصفونه بالعيّن، ولربما كان هذا دافعا نفسياً آخر، جعله يدمن معاشرته النساء، ليثبت للناس أنه رجل سليم، وليس عنيماً.

3.5 أنا السكر والانتشاء:

تكاد معاقرة الخمرة لا تنفك عن مجالس اللهو والغناء والنساء، وقد انتشرت انتشاراً فاحشاً في العصر العباسي، في بيوتات الأمراء والوزراء والشرطة والطبقة المتوسطة. وقد قيل: (إذا عمّت خقت). والشاعر -مثلُه- مثَلُ كثيرٍ من معاصريه-أطلق العنان لنفسه بشرها، ووصفها، وذكر محاسنها. ولقد وقع خلاف في حكمها بين الفقهاء آنذاك، وكان كثير من فقهاء العراق يرون حلَّ النبيذ، واشتهر العراقيون بحل النبيذ (أمين، 2012، صفحة 119). فشجع ذلك كثيراً من أمثال الشاعر، على شربه والدعوة إليه. وفي ذلك يقول: (ابن الرومي، 2003، الصفحات 983-984):

أحلَّ العراقيّ النبيذَ وشربَه ...

وقال الحرّامان المدامةُ والسُّكْرُ

وعتادُ لما نُحِبُّ عَتِيدُ

وفي علاقة الأنا بالمرأة عشيقة، وتعلقه بها، فإن سببه "لم يكن من طريق النظر والسمع وحدهما، بل كان لحواسه الأخرى، -ولا سيما اللمس- حظ وافر من القدرة على إفادة الاستمتاع بالجمال" (المازني، 2010، صفحة 270). وابن الرومي بارع في وصف ذلك، يصوره تصويراً تحسه بكل حواسك، وتشاركه فيه. ومن ذلك قوله (ابن الرومي، 2003، صفحة 2485):

أعانقها والنفسُ بعدُ مشوقَةٌ ...

إلها وهل بعد العناق تداني

فألتئمُ فاها كي تموتَ حزازتي ...

فيشتد ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذي بي من الجوى ...

ليشْفِيهِ ما ترشَّفُ الشَّفَتانِ

كأنَّ فؤادي ليس يشْفِي غليلَه ...

سوى أن يرى الروحَينِ بمتزجانِ

هكذا هو ابن الرومي كما وصفوه: "منكاح

مزواج، يتمنى النساء دائماً ويغضب إذا رآهن في حوزة غيره، فيلجأ إلى فنه يستنجد به ليخفف من عرام حنقه" (عبود، 2015، صفحة 127). وإذا ما أردنا تفسير ذلك من وجهة نظر علم النفس، فإن لفرويد وتلميذه أدلر رأين مختلفين، حيث يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هي القوة الدافعة في سلوك البشر، (..) وذهب أدلر Adler إلى أن شعور الإنسان بالنقص هو الذي يدفعه إلى تعويضه" (عبد الله، 2020، صفحة 14).

كل هذا اللهو مع بائعات الهوى، لم يصرف ابن الرومي عن فكرة الزواج، ذلك أنه أشبع غريزة بهيمية ولكنه لم يجد الحب، ذلك أن القوة التي تميز "الحب عن الرغبة الجنسية المجردة، هي هذا الاتجاه المثالي نحو عالم أكمل من الواقع،

للمرء ظهر المعجن، ولم يجد المرء للتغلب عليه من سبيل؛ فإما أن يلجأ إلى السباب والشتائم، وإما أن يكثر من الدعاء والصلاة، وإما أن يشرب الخمر حتى يسكروا ولا فيجن أو ينتحر" (عبد الله، 2020، صفحة 49). وقد بدا لنا أن ابن الرومي - من خلال سيرته الشعرية-، قد فعل كل ذلك، فسب وشتم هاجيا، ولجأ إلى الله أحيانا متبتلا، وشرب الخمرة شابا، كما شربها شيخا، بحجة أنها تنسي معاناة أيام الشيخوخة الثقيلة الطويلة وهمومها. حيث يقول: (ابن الرومي، 2003، صفحة 2015)

فأعدُّ شُرَابِ المُدَامَةِ شَارِبٌ ...

لتقصير أَيَّامِ المشيبِ الأطْوَلِ
إن هذه الأسباب الظاهرة التي لجأ إليها أنا السكر والانتشاء ليبرر شربه الخمر، هي مبررات زائفة، دبرها عقله الباطن، لِيُحَاجَّ بها الأنا الأعلى -الضمير- الذي يسائله ويؤنبه على استباحة المحرم، وتجاوز حدود الله -عز وجل-. لأن الأسباب والدوافع الحقيقية مبثوثة في اللاشعور، ومرجعها إلى نزوات طفولة وغرائز بدائية ليس إلا. والتبرير: حيلة لا شعورية، لتبرر الأنا أفعالها التي لا تلقى قبولا أمام المجتمع، أو أمام ضمير الشخصية نفسها، حتى يقتنع الشخص ذاته بينه وبين نفسه، ويحاول إقناع غيره بها (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 88).

4.5 أنا الضعف والبكاء:

يختلف أنا الضعف والبكاء عن الأنوات السابقة: أنا الفخر وأنا العشق وأنا السكر، من حيث المظهر والقوة والخطاب. إنه "أنا" اعترافه ضعف جسدي، وضعف مادي، وضعف نفسي وعقلي، وآخر اجتماعي، فبدا منكسرا شاكيا باكيا، من بين افتقدهم، وجسم عليل متهالك،

وقال الحجازيُّ الشرابان واحدٌ ...
فحلَّت لنا بين اختلافهما الخمرُ
سأخذ من قولهما طرفهما ...

وأشربها لا فارق الوازر الوزرُ
وهناك عوامل أخرى أسهمت في تعلق الشاعر بالخمرة وتعاطفها؛ وهي حضوره مجالس اللهو والخمر مع أخيه الأكبر حين كان طفلا، والتصاق ذلك المشهد في ذاكرته. يقول فرويد: "إن التأثيرات التي يتلقاها الطفل منذ الولادة، بل قبل الولادة (..) تصحبه في المستقبل، وأن بعض هذه التأثيرات تكبت في النفس بعامل التقاليد والتربية (..). ولكنها تظل حية تحاول الظهور، وقد تتخذ سبلا ملتوية (..) كما في الأحلام، وأحلام اليقظة، والأمراض العصبية" (عبد الله، 2012، صفحة 27).

ويرى ابن الرومي في الخمرة أكثر من مجرد وسيلة لهو أو متعة، حين يزعم أنها تنسي الهم، وتزيل الغم، وتفرح القلوب. حيث يقول (ابن الرومي، 2003، صفحة 568):

حَلَّ الزمانَ إذا تَفَاعَسَ أو نَجَّحَ ...

واشكُّ الهمومَ إلى المُدَامَةِ والقَدَحِ
واحفظْ فؤادَكَ إنْ شَرِبْتَ ثلاثةً ...

واخذُرْ عليه أنْ يطيرَ من الفِرْحِ
هذا دواءٌ للهِمومِ مُجَرَّبٌ ...

فاسمَعْ نصيحتَه حازِمٍ لك قد نَصَحَ
ودع الزمانَ فكَمْ نصيحتِ حازِمٍ ...

قد رام إصلاحَ الزمانِ فما صلَحَ

ومثل هذا الرأي قديم وشائع، ربما صدر من تجار الخمرة أنفسهم، ليروجوا بضاعتهم، وحتى يومنا هذا لا نزال نسمع مثل هذا الكلام (..). قال بعضهم: "من الحكم القديمة، أن الزمان إذا قلب

وعجبتُ لقلبي كيف لم يَنْقَطِرْ لَهُ ...
 ولو أَنَّهُ أَقْسَى من الحجر الصَّلْدِ
 لا نجد اعتراضاً من الشاعر على قضاء الله في
 الأبيات، ولا نجد جهلاً، ولكن أثره النفسي كبير
 جداً عليه ف"يجب ألا ننسى أن فقدان أولاده
 الثلاثة في حداتهم، وفقدان زوجته وأخيه الأكبر
 لا تبقي مجالاً للشك في سبب تناقض طبيعته
 واضطراب أعصابه" (خليل، 1963، صفحة
 101). لا يملك الأنا في هذا المقام غير الاستسلام
 لأمر الله، وكان حقُّ قلبه أن ينفطر على ولده
 حسرة وأسى، ولكنه لم يحدث أو لم يفعل، لأنه
 يدرك أن لا جدوى من ذلك، وأقل ما يمكن أن
 يفعله الأنا أن يكون باكياً، أمام سنّة الموت،
 تخفيفاً من وقعها، وإعلاناً عن العجز أمامها، وبتأ
 للشكوى، وطلباً للمواساة والتعزية.

ومن رثاء الولد إلى رثاء البلد، رثاء البصرة بعد
 خرابها إبان ثورة الزنج (255-270هـ)، فهل كان
 فَقْدُ البلدِ أَشَدَّ مِنْ فَقْدِ الوَلْدِ؟ حيث يقول (ابن
 الرومي، 2003، صفحة 2377):

أَيُّ نوم من بعد ما حل بالبص ...

رّة من تلكم الهنات العظام

أَيُّ نوم من بعد ما انتهك الرّد ...

جُ جهاراً محارمَ الإسلام

لهفَ نفسي عليك أَيُّهَا البص ...

رّة لهفأ كمثّل لفح الضّرام

لهف نفسي عليك يا معدن الخي ...

رات لهفأ يُعَضُّي إبهامي

لهف نفسي يا قُبّة الإس ...

لام لهفأ يطولُ منه غرامي

لهف نفسي لجمعك المتفاني ...

لهف نفسي لِعِرْكِ المُستضام

بينما أهلها بأحسن حال ...

وشيب خضَبَ شعره، وهمر أحن ظهره، وشوّه
 مظهره، وفقر مدقع أحوجه، ودينيا تركته،
 وملذات سكرٍ وغنائٍ ونسائٍ فاتته، وعُدّال تحاملوا
 عليه حسداً وسخريةً وهجاءً وانتقاصاً.

ولكن مظاهر الباطل عن أنا الضعف والبكاء
 لم تختلف بإرادته ورغبته، ولم يختلف اللهب
 والمجون من حياة ابن الرومي في خطابه توبةً
 وزهداً، "ولم يزعم الشاعر أنه ترك الدنيا توبةً
 وإنما هي التي تركته، إنه ليس قُعود التوبة
 والانتها، بقدر ما هو قُعود مكروه، قعود العياء
 والعجز، فهو لا يبنذ باطل المجون لأنه فطن إلى
 فضيلة الحق والزهد، بل لأنه مقسور، بعد أن
 كلت مطيّة باطله، وكلّ جسده، وأُعي وتهالك،
 لِعُرُوفٍ ليس في نفسه، وإنما هو في جسده"
 (الحاوي، 1959، صفحة 299).

دبّ الموت ليقضي على أفراد أسرته، فتوفي
 والده ووالدته وأخوه وخالته، ثم زوجته وأولاده
 الثلاثة. فقد ابن الرومي الأصول والفروع فلم
 يبق له غير شعره، ينفثه نفثاً ليخفف به من حرّ
 ما يجد. إذ يقول في رثاء ولده: (ابن الرومي،
 2003، الصفحات 2327-2328)

بكاؤكُمَا يشفي وإن كان لا يُجدي ...

فجوداً فقد أودى نظيركُمَا عندي

بئي الذي أهدته كفاي للترى ...

فيا عرّة المُهدى ويا حسرة

المُهدي

ألا قاتل اللّه المنايا ورمّهما ...

من القوم حَبّات القلوب على عمّد

تَوخّي حِمَامِ الموتِ أوسطَ صَبِيّتي ...

فله كيف أختار واسطة العقد

طَوَاهُ الرّدَى عني فأضحى مزاره ...

بعيداً على قُرب قريباً على بُعد

غني الغفأة به عن التصريح
 أشكو إليك خصاصةً وتَجَمُّلاً ...
 قَدْ بَرَّحَا بِي أَيَّمَا تَبْرِيحٍ
 لَتَصُونُ وَجِبِي عَن وُجُوهٍ وَفَحِّثُ ...
 بِالرِّدِّ تَوْفِيحاً عَلَى تَوْفِيحٍ
 وفي مقام آخر يجمع لنا الشاعر جملة المصائب
 التي أضعفت أنه وكسرت ذاته وقهرتها؛ ومن
 ذلك الأسقام والأمراض، وفقد الأحبة، والفقر
 والحاجة، والوحدة والوحشة. حيث يقول: (ابن
 الرومي، 2003، صفحة 91)
 أنا ذاك الذي سَقَّتُهُ يَدُ السَّقِّ ...
 مِ كُوُوساً مِنَ المُرَارِ رِوَاءِ
 ورأيت الجمام في الصُّورِ الشُّدِّ ...
 عَ وَكَانَتْ لَوْلَا القَضَاءُ قَضَاءِ
 ورماه الزمان في شُقَّةِ النَفِّ ...
 سِ فَأَصْنَى فِوَادَةَ إِصْمَاءِ
 وابتلاءً بالعُسْرِ في ذاك والوَحْدِ ...
 شَةَ حَتَّى أَمَلَ مِنْهُ البِلَاءِ
 ولربما تفجع ابن الرومي من حلول مشيبه
 وغروب شبابه أكثر من كل شيء، ولربما عبَّر عما
 يخالج كل إنسان منا غزاه الشيب، حين يقول
 (ابن الرومي، 2003، صفحة 586):
 كفى حزناً أنَّ الشَّبَابَ مَعَجَلٌ ...
 قَصِيرِ اللَّيَالِي وَالْمَشِيبَ مَخْلَدٌ
 أأيَّامَ لَهْوِي هَل مَوَاضِيكَ عُوْدٌ ...
 وهل لشباب ضلَّ بالأمس مُنْشَدٌ
 أقول وقد شابَتْ شَوَاتِي وَقَوَّسَتْ ...
 قناتي وأضخَّت كِدْنِي تَتَخَدَّدُ
 ودبَّ كلالٌ في عظامي أدبِّي ...
 جَنِيْبَ العِصَا أَنَادُ أَوْ أَتَأَيِّدُ
 وَلَدَّتْ أَحَادِيثِي الرِّجَالُ وَأَعْرَضَتْ ...
 سُلَيْبِي وَرِيًّا عَن حَدِيثِي وَمَهْدَدُ

إذ رماهم عبيدهم باصطلام
 رثاء المدن من الأعراس المستحدثة، ولا
 نجد فاجعة خراب البصرة بأشد من فاجعة فقْد
 الولد، ولا نحسبه رثاءها إلا مواساة لمواليه
 العباسيين، وتزلفا لهم، وتطيبا لنفوسهم، فلقد
 كانت البصرة أهم حواضر دولة بني العباس
 آنذاك، وتعني لهم الكثير، ولكنها لم تكن مسكنا
 أو موطننا يوما لابن الرومي، الذي كان يكره
 الترحال والتنقل، وكعادة ابن الرومي نجده يرثي
 لمذاتٍ كانت بالبصرة، يرثي النوم فيها، ويرثي
 الخيرات، وجموع الناس وحسن حالهم الذي كان.
 ويكرر "لهف نفسي" تحسرا وتفجعا، كما كرر
 "الإسلام"، مشيرا أن شدة تلهفه على البصرة،
 كونها موطن الإسلام الذي انتهكت محارمه من
 الزنج. وفي ذلك تناقض صريح، إذ لا نشعر بصدق
 الشاعر فيما يزعمه من لهفة نفسه على الإسلام
 الذي ضاع بضياغ البصرة، لأنه كان مناديا
 لمذهب اللذة دون وقوف عند حدود الإسلام، بل
 مبديا امتعاضه في بعض شعره من الصيام
 وغيره. وفي كل الأحوال يبدو الأنا مستضعفا،
 مدعيا فقْد المكان.
 وترتبط الشكوى والمسألة بذل الأنا
 وانكساره، ويزعم الشاعر أنه يتعفف عن مسألة
 اللثام، الذين لا يحفظون له ماء وجهه، الذين
 يضطرونه أن يصرح لهم بخصاصته، ورغم ذلك
 لا يعطونه حاجته. ويحاول الشاعر هنا أن يخفف
 من ذل الأنا وضعفه، حين يقصد أبا القاسم
 الوزير دون غيره، لأنه يفهمه ويشعر بحاجته،
 بالتعريض دون التصريح، وفي ذلك إعزاز للأنا في
 مقام ضعف وإذلال. قال الشاعر: (ابن الرومي،
 2003، صفحة 539)
 يا من إذا التَّعْرِيضُ صَافِحَ سَمْعُهُ ...

وَبَيْلٍ إِعْجَابُ الْغَوَانِي تَعْجُبًا ...

فَهِنَّ زَوَانٍ يَعْتَبِرْنَ وَصُدُّدٌ

ولكن المفارقة أن الشاعر لم يعلن براءته من معاصيه في الشباب، بل حن إليها وبكى عليها، إنه لم يبك شيخوخته إلا لأنها حالت بينه وبين شهواته وملذاته، ويقوم الشاعر بمقارنة بين رذائل المشيب وفضائل الشباب، وكأنني به يسلي نفسه ويصبرها بقوله: (لئن كان أنا الشيخوخة ضعيفا محروما، فلطالما كان أنا الشباب قويا متمتعاً بملذات الدنيا وشهواتها. "وهكذا فإنه يتلطف على الماضي من خلال الحاضر (..) فيتصعد ويتأوه، لأن تعاسته الحاضرة تذكره بسعادته السابقة، فيتنازع بين واقعه البشع وماضيه الجميل" (الحاوي، 1959، صفحة 308).

وكلمة الفصل: إن هذا الأنا بدا باكيا شاكيا، ضعيفا مستضعفا، ومحروما. ولكن الشاعر أراد لذاته وأناه غير ذلك، أراد له عزا ومتعة وقوة، فصرف المتلقي من صورة الواقع إلى صورة الماضي، ليعلن أن ضعفه هذا طارئ، وأنه قد استغل شبابه في لهوه وملذاته أيما استغلال.

5.5 أنا المدح والإطراء:

تغلب قصائد المدح في ديوان ابن الرومي على باقي الأغراض الأخرى، ولكن ابن الرومي لم يجعل مدحياته مدحا خالصا للممدوح، بل ضمنها أغراضا أخرى، مثل الوصف والعتاب والتشكي والخواطر؛ وأقحم أنا المدح مقابل الآخر الممدوح، حتى قال بعضهم: "إن شعرا ابن الرومي يثير جملة من القضايا الفنية، (..) فالقارئ لشعره يحس دوماً بأنه أمام لحظة فنية متأقفة، فهو ملاحق دوماً بفعاليات جمالية تثير فيه الانفعالات والمتعة الفنية، وتشحذ ذهنه بالتساؤل والمهارة العقلية" (الصفدي، 2012م،

صفحة 5). ولعل تساؤلنا في هذا المقام: كيف تجلى أنا المدح والإطراء؟

ظهر أنا المدح والإطراء عند ابن الرومي متعدد الذوات، متناقض الصفات، ومن ذلك المدح بعد الهجاء، والهجاء بعد المدح، فهو رجل مزاجي لا يؤتمن جانبه. و"أعجب ما في نفسية الشاعر متصلا بالمدح هو ذلك التناقض الغريب الذي يحمله على مدح إنسان، ثم يحمله آخر الأمر على هجائه، فهذا بالطبع نقر الناس منه، ونقره من الناس" (نعمة، 1963، صفحة 103). قال في مدح الأخفش بعد هجائه وصلحهما: (ابن الرومي، 2003، صفحة 1921)

ذُكِرَ الْأَخْفَشُ الْقَدِيمُ فُكُنَّا ...

إن للأخفش الحديث لفضلا
بدأ النحو ناشئاً فغذاه ...

أحدثُ الأخفشين فانصتَ كهلا
وتعاضى فقادته بيديه ...

أحدثُ الأخفشين فانقادَ رَسُلا
هو بحرٌ مِنَ البحورِ فَرَاتٌ ...

ليس ملحاً وليس حاشاه ضحلا
وحرامٌ عليّ عِرْضُكَ بَسْلٌ ...

أبدأ ما رأيتَ عرضي بَسْلا
فالزم الصّدقُ إنه للفريقيّ ...

نِ نِجَاةٍ وَالْحَتْلُ يَجْزِيكَ خَتْلَا
إن أنا المدح بدا معظما للممدوح للأخفش،

وحلّاه بما يناسبه من الفضائل والمناقب، فوصفه بأنه بحر علم في النحو خاصة، انقاد له

النحو وطوّعه على يديه. وهو مع ذلك يحذر من نقض الصلح، وينصحه بالتزام الصدق، كي تدوم

المودة بينهما. ويضاعف التعظيم ويبالغ فيه للممدوح في حال الرجاء والطلب، فإذا ممدوحه

غيور وشفيق وعادل وجواد ورؤوف وحفيظ

ألا ليت شعري لِمَ مَطَلْتِ مَثُوبِي ...
ولم تُؤْتِ من بخلٍ ولم تؤت من عسر
إخالك إذ جَوَّدتُ فيكَ مَدائِي ...
منعت ثوابي حاسداً لي على شعري
تذكُرْ هداك الله أني مَادِح ...
وأنت ممدوح فلا تعدُّ بي قدرِي
عليك بإغناء الفقير وجَبْرِهِ ...
وفكِّ الأسير المستكين من الأسر
عليك بأفعال الملوك وِخْلِي ...
وتقريظ ما تأتي من العُرف والنكر
أقول وتعطي نائلاً بعد نائلي ...
فتغرِف من بحر وأقلع من صخر
أنا المدح عند ابن الرومي فيه عزة وغرور،
غير منكسر ولا ذليل، إنه يعتقد أنه يستحق
ويستأهل ثمنا وجزاء مدحه، فالمدح تشهير
للممدوح ورفع لقدره ومكانته في المجتمع. إننا
نشعر أن أنا المدح يساوي نفسه بالآخر
الممدوح، ولم يتذلل في مسأله ولم يستح، بل
يطلب جهاراً لا إسراراً، بعزة لا بانكسار، ويقف
موقف الند للممدوح. و"كان يتوهم أنه فوق
العالمين، أنه جدير بكل احترام وتعظيم، وأن من
لا يكرمه فقد نقص قدره، فحق عليه أن يهجو
ويحط من كرامته، وهذا التوهم ناتج عن موهبته
الشعرية الحادة المقرونة بضعفه العصبي والتي
جعلته رجلاً غريب الطباع شاذ الأخلاق ميالاً إلى
الإسراف في كل شيء" (خليل، 1963، صفحة
103).

فلا عجب أن بعض الممدوحين كانوا ينفرون من
مدحه، وكثرة إلحاحه، وشدة عتابه. ويصطلح
عليها في علم النفس بالحدة. وهي كمية الطاقة
الناجمة من فرد "لمواجهة مثير أو موقف معين،
بحيث تبدو في إطار معايير الواقع في صورة

وميسر. ليستحته على العطاء ومثال ذلك ما قاله
في مدح إسماعيل بن بلبل (بسج، 2002، صفحة
28):
يا غيوراً أن يُهتَكَ المستورُ ...
وشقيقاً أن يهلك المضرورُ
أنا في حالة رجائي فيها ...
من سوى الله أو سواك عُورُ
ومعي سالفُ الموالة والمدُ ...
ح وشكرُ مستأنفُ موفورُ
يا لها حرمةً أبحت جِماها ...
وعلى مثلها يَغَارُ الغيورُ
فأغثني أغاثك الله إني ...
في يد الدهر مطلقٌ مأسورُ
لا تدعني فأنت أثرُ بالحمُ ...
دِ قديماً وفضلك المأثورُ
يا أبا العدل والذِي فضلُهُ المَبُ ...
سوط فينا وبشره المنشورُ
حُقَّ عند الرجاء فيكَ المرجَى ...
أن يحق المرجوُّ لا
المحذورُ
لك جودٌ ورافةٌ وحِفاظٌ ...
واليك الميسور لا المعسورُ
وجعل الشاعر المدح والموالاة والشكر هي
المقابل لعطية الممدوح وغوثه، فهو لا يملك غير
لسانه وشعره، وهو معتز بذلك، بل يمتُّ على
الممدوح بمدحه عليه وثنائه. وقد عُرف ابن
الرومي بأنه ملحاح في طلبه، يكره مطل الممدوح
في العطاء ويكره تجاهله له، فيغضب ويعاتب
الممدوح أشد العتاب، حتى يقارب التجريح،
ويخاطبه وكأن لديه حقاً مشروعاً على الممدوح
قد منعه منه. ومن ذلك قوله: (بسج، 2002،
صفحة 27)

تنحرف -كمًا- عن الاستجابة المتوقعة وتزيد عليها
 في كمية الطاقة المستهلكة" (فرج وآخرون،
 د.ت.ط، صفحة 167) ورغم ذلك فجمالية أنا
 المدح غير خافية، وهي في مخالفة المألوف من
 المديح، حيث نراه مدح طوائف من الناس، من
 أهل علم وأهل فن وغناء ووزراء وخلفاء وقادة
 وكتاب وقضاة وعامة، كما مدح الفضائل وتغنى
 بها، ومدح الأطعمة والأشربة. وفي مدحياته كسر
 التقاليد المعروفة في المديح وجدد.

6.5 أنا المسخ والهجاء:

كان ابن الرومي هجاء أكثر منه مداحا، قال
 ابن شرف: "وله في الهجاء، ما ليس له في الإطراء،
 فتح فيه أبواباً، ووصل منه أسباباً، وخلع منه
 أثواباً، وطوق فيه رقاباً، يبقين أعماراً وأحقاباً"
 (خليل، 1963، صفحة 103). ولربما سأل سائل
 ما سبب ذلك؟ فنقول: لأنه قد أوتي كل أسباب
 الهجاء النفسية الذاتية والاجتماعية الخارجية،
 فضلاً عن موهبته الشعرية. وهو نفسه كان يدرك
 هذه الحقيقة، فلقد قال للبحثري -حين أراد أن
 ينظم في الهجاء- "إياك والهجاء يا أبا عبادة؛
 فليس من عملك، وهو من عملي" (عمران،
 1995، صفحة 420). وتظهر لنا في غرض الهجاء
 شخصية ابن الرومي وأناه الحقيقي، في أسلوبه
 ونفسه وروحه، ذلك الأنا المكلم والمجروح
 والحاقد والمنتقد والساخر الهاجي والرسام
 الكاريكاتوري المبدع.

هجا ابن الرومي خلقاً كثيراً، ولم يستثن نفسه
 من ذلك، فالشعور بالنقص كان لا يفارق فكره،
 من حيث المادة، ومن حيث الخُلقة والخلق. قال
 هاجيا نفسه: (ابن الرومي، 2003، صفحة
 1470)

من كان يبكي الشباب من جزي ...
 فلسْتُ أبكي عليه من جزي
 لأن وجهي بقبح صورته ...
 ما زال لي كالمشيب والصلع
 أشبَّ ما كنتُ قطُّ أهرمًا ما ...
 كنتُ فسبحان خالق البدع
 إذا أخذتُ المرأة أسلفني ...
 وجهي وما مُتُّ هول مطَّعي
 شُغِفْتُ بالخرَدِ الحسان وما ...
 يصلحُ وجهي إلا لذي ورع
 كي يعبدَ الله في الفلاة ولا ...
 يشهدُ فيه مشاهد الجُمع
 إن لهجاء ابن الرومي أنه أو ذاته سببا، هو
 عدم صلاحية جسده ومظهره ووجهه لاصطياد
 الحسان، ولأيام اللهو والغواني. إنه ينطق بمذهب
 اللذة والألم صراحة، فما اللذة عنده إلا في جسد
 جميل حسن، يهتم من كل المتع والنعيم، وما
 الألم إلا أن تراه دميما مبعدا من لذاته. ومما
 يثير العجب حقا رؤيته الدونية للزاهد والمتعبد
 المنقطع. وذلك حين زعم أن لا صلاحية لوجهه
 الدميم غير الزهد والتعبد والعزلة، في إشارة إلى
 الاستهانة بالعبادة والعايد، وما ذلك إلا من
 ضعف وازعه الديني.

ويتمرد أنا الهجاء والمسخ أكثر، ويتجاوز
 حدوده، حين يهجو شهر رمضان الكريم، حيث
 يقول (بسج، 2002، صفحة 66):
 رمضانُ يزعمُهُ الغواةُ مباركُ ...
 صدقُوا وجدَّكُ إنه لَطويلُ
 شهرٌ لعمرُكُ لا يقلُّ قليلهُ ...
 وكذا المبارك ليس منه قليل
 تتناولُ الأيامُ فيه بجهدِها ...
 فكأنَّ عهدَ الأُمسِ منه محيل
 لو أنه للقاطعين مسافَةٌ ...

يستجدي ذوي السلطان للعفو عنه من شكوى أو
جريرة، أو يستجديهم في مال أو طعام.
ولما كانت طلبات ابن الرومي كثيرة، ما كان
لأحد يستطيع تلبيةها، وإن كان ذا مالٍ وجاهٍ. ولم
يكن الشاعر يرى في ذلك غير البخل واللؤم
والحسد. فصوّر البخل بأقبح الصور، ومسح
صاحبه مسحا مستكرها تسمئز منه النفوس، في
مشهد ساخر كاريكاتوري، نشعر من خلاله بحقد
كبير على الأغنياء البخلاء. حيث يقول (ابن
الرومي، 2003، الصفحات 641-642):

يُقتر عيسى على نفسه ...

وليس بباقي ولا خالدٍ

فلو يستطيع لتقتيره ...

تَنفَس من منخرٍ واحدٍ

عذناه أيام إعدامه ...

فما عذرُ ذي بخلٍ واجِدٍ

رَضِيْتُ لتفريق أمواله ...

يَدَي وارثٍ ليس بالحامِدِ

وإننا "إذا بحثنا عن دوافع الهجاء لديه

وجدناها نابعة من إحساسه بالغبن في زمن يرفع

الأندال ويحطّ الشرفاء، ومن شعور عميق

بالخوف أيضا"، فكان الهجاء سلاحه الوحيد في

وجه زمنه الكالج" (الصفدي، 2012م، صفحة

104): وهكذا يتجلى أنا الهجاء والمسح

والسخرية مؤديا ثلاثة وظائف: إحداها اجتماعية

إصلاحية باسترجانه للذائل ومدحه للفضائل،

وثانها نفسية تنفيسية، فلطالما وجد ابن الرومي

في الهجاء متنفسا، وشفاء لما في نفسه من بغض

البخلاء. وثالثها فنية، فلقد كان متفوقا في غرض

الهجاء -كما أشرنا سابقا-

7.5 أنا الرحلة والبقاء:

لحسبت أن الشبر فيها ميل

لا عجب أن يستثقل ابن الرومي شهر رمضان،

وأن يستهجن أيامه الطوال، فقد عهدنا الشاعر

كارها لكل ما يحول بينه وبين ملذات الدنيا

وأطايها، ومحبا لكل ما هو جالب لها. ومن دواعي

الهجاء عنده -أيضا- أخلاق ذميمة شاعت في

مجتمعه العباسي الحضري آنذاك، منها البخل -

خاصة- والغدر والحسد، والوقاحة، والغدر.. قال

ابن الرومي في مثل ذلك (ابن الرومي، 2003،

الصفحات 2003-2004):

وجهك يا عمرو فيه طولٌ ...

وفي وجوه الكلاب طولٌ

فأين منك الحياءُ قل لي ...

يا كلبٌ والكلب لا يقولُ

والكلب وافٍ وفيك غدرٌ ...

ففيك عن قدره سُفولُ

وقد يحامي عن المواشي ...

وما تحامي ولا تصولُ

مستفعلٌ فاعلٌ فعولٌ ...

مستفعل فاعل فعولُ

بيت كمعناك ليس فيه ...

معنى سوى أنه فضولُ

يظهر أنا الهجاء هنا مصورا كاريكاتوريا، كما

يظهر ماسحا للمهجو، مُسوِّيا بينه وبين الكلب،

ثم مُنزِلا لقدره عن الكلب. وما ذلك إلا أن في

الكلب مواصفات حميدة مثل الوفاء وحماية

القطيع والمالك وغيرها، لم يرها ابن الرومي في

عمرو. ولا نشك أن الأنا تعرض هنا لغدر وعدم

وفاء بوعد أو عطاء، من طرف أحد القضاء أو

الوزراء أو غيرهم، فصبّ جمّ غضبه على

المهجو. وقد أشرنا إلى أن الشاعر كثيرا ما كان

دعِ اللّومَ إن اللّومَ عونُ النوائِبِ ...
 ولا تتجاوز فيه حدَّ المُعَاتِبِ
 فما كلُّ من حطَّ الرحالَ بمخفٍ ...
 ولا كلُّ من شدَّ الرحالَ بكاسبِ
 أذاقتني الأسفارُ ما كرهه الغنى ...
 إليّ وأغراني برفض المطالبِ
 فأصبحتُ في الإثراء أزهّد زاهدي ...
 وإن كنت في الإثراء أرغب راغب
 فقدمتُ رجلاً رغبةً في رغبةٍ
 وأخرتُ رجلاً رهبةً للمعاطبِ
 لقيتُ من البرِّ التّباريحَ بعدما ...
 لقيتُ من البحر ابيضاضَ الذوائبِ
 فما زلتُ في خوفٍ وجوعٍ ووحشةٍ ...
 وفي سَهَرٍ يستغرِقُ الليلَ واصبِ
 إنها فوبيا الماء والأعماق وكذا السفر برا؛
 جعلته يؤثّر البقاء على ما يناله من السفر من
 عناء. والفوبيا تعني: "الخوف والهول أو النفور (...).
 وهي خوف شديد مرضي من أشياء أو مواقف
 نوعية لا حصر لها" (فرج وآخرون، د.ت.ط،
 صفحة 353). وهكذا يتجلى الأنا خائفاً مرعوباً
 من السفر، وفي الوقت نفسه راغباً في المال محباً
 له؛ ويجد نفسه بين أمرين أحلاهما مر. ولكنه
 يفضل السلامة مع الفقر، على الغنى مع الخطر.
 ومن أجمل ما قيل في إثثار القرار على الأسفار،
 قوله: (ابن الرومي، 2003، الصفحات 1825-
 1826)
 ولي وطن آليت ألا أبيعهُ ...
 وألا أرى غيري له الدهر مالكا
 عهدت به شرح الشباب ونعمة ...
 كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
 فقد ألفتة النفس حتى كأنه ...
 لها وطن إن فات غودرت هالكا

كانت رحلات ابن الرومي في عالم الشعر،
 تخييلاً وتوليداً للمعاني، وعبثاً بالألفاظ، أكثر من
 رحلاته الحقيقية، حيث كانت قليلة ونادرة و"ربما
 رحل في تلك الأيام إلى الأبلّة أو سامرا "سر من
 رأى" أو بعلبك -وهي فيما نظن- أبعد ما وصل إليه
 في رحلاته" (العقاد، 2014، صفحة 149). ويزعم
 العقاد أن ابن الرومي كان أضعف من أن يتحمل
 مشقة الأسفار، ناهيك عن فشل التوفيق
 والاستزاق في تلك المدن، ونكرانه لها ونكرانها
 له (العقاد، 2014، صفحة 149). قال الشاعر في
 هذا المعنى (ابن الرومي، 2003، صفحة 2002):
 لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ...

بل الأرض بل بغداد صاحبة التّبل
 هكذا يبدو أن الرحلة غربياً مغترباً، غير موفق
 في أي مكان يقصده، جسّد غير مؤهل للترحال،
 وفشل في الرزق والنوال. ولذلك سرعان ما يجنُّ
 إلى بغداد وصحبه فيها، ويعزم ألا يفارقها بعد
 العودة، ولربما بدا لنا الشاعر وفياً لمن ألفهم،
 خاصة أولئك الذين أحسنوا إليه، والذين تجمعهم
 وإياهم مجالس اللهو والغناء. حيث يقول: (ابن
 الرومي، 2003، صفحة 1106)
 وإن يقض لي اللّه الرجوع فإنه ...

عليّ لهُ ألا أفارقكم نذر
 ولا أبتغي عنكم شُخوصاً ورحلةً ...
 يد الدهر إلا أن يُفَرِّقنا الدهر
 فما العيش إلا قرب من أنت ألف ...
 وما الموت إلا نأيه عنك والهجر
 لا يجد ابن الرومي غضاضةً، أن يصرح بخوفه
 من ركوب البحر وقطع البر، لمن نصحوه
 بالسفر، من أجل طلب الرزق، وعاتبوه على
 المكث والبقاء-.، حيث يقول: (ابن الرومي،
 2003، الصفحات 213-215)

اجتماعيا ونفسيا ما رأينا هذا الكم الشعري الهائل المقدر بألاف الصفحات التي سوّدها في ديوانه الضخم؛ ولولا المعاناة ما تولدت هذه التجارب المختلفة وتشاكلت، فصوّرت الذات الشاعرة وما يحيط بها من حجر وبشر، وخير وشر، وشهوة عارمة، وتوبة صارمة، ونقمة ناقمة، ذلك ابن الرومي الذي شغل جيله ومن بعده، وخلّد ذاته من بين أعظم شعراء العربية، وإن كان أبوه روميا وأمه فارسية.

7. قائمة المراجع:

1.7. المؤلفات:

- (1) أحمد الشويخات، وآخرون. (1999). الموسوعة العربية العالمية (الإصدار 2). مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. الرياض، السعودية.
- (2) أحمد أمين. (2012). ضحى الإسلام (الإصدار 4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.
- (3) إيليا سليم الحاوي. (1959). ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره (الإصدار د.ط.). مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني. لبنان.
- (4) إيمانويل كانط. (1965). نقد العقل المجرد (الإصدار 1). (ترجمة أحمد الشيباني) دار مكتبة الحياة. بيروت، لبنان.
- (5) بسج أحمد حسن. (2002). شرح ديوان ابن الرومي (الإصدار 3). دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان.
- (6) جست روفون. (2011). ابن الرومي حياته من شعره. (ترجمة حسين نصار) المركز القومي للترجمة. القاهرة، مصر.

وحبّ أوطان الرجال إليهم ...
 مآرب قضاهم الشباب هنالكا
 إذا ذكرت أوطانهم ذكّرتهم ...
 عهود الصبا فيها فحّتوا لذلك
 ونحسب هذا الوطن الذي يقصده الشاعر بغداد، فقد كانت مدن الشعراء وحواضرهم التي ولدوا فيها أوطانا باصطلاح العصر. ويصف الشاعر حبه لوطنه، ويفسر ذلك الحب والتعلق، بأن مرجعه لذكريات الشباب التي حصلت في الوطن. وهكذا يجعل ذكريات لهوه وشبابه وطيشه في هذا الوطن، هي سبب حبه له. ونخلص إلى أن أنا البقاء والاستقرار كان غالبا على أنا الأسفار، وقد بدا الأنا في حله وترحاله كليهما غير سعيد وغير مطمئن البال. ففي الأولى مخاطرة بالنفس وركوب أهوال، وإن جلبت بعض المال؛ وفي الثانية سلامة نسبية مع الفقر وسوء الحال.

6. الخاتمة:

كانت هذه الصفحات رحلة في ذات ابن الرومي، وتفصيلا لأنواته وتحريرها، وتمييزا لها وتفسيرها. فإذا هي مفتخرة بذاتها مثنية عليها، عاشقة للغناء والنساء، منتشية بالسكر أيما انتشاء، شاكية معلنة ضعفها بالبكاء، مادحة طمعا في العطاء، قاذفة أشد الهجاء، راهبة من الترحال راغبة في البقاء. وكل ذلك إنما يعبر عن النفس البشرية العادية التي أطلق لها صاحبها العنان، في نيل ما أمكن من أطياب الحياة وملذاتها وشهواتها في تمرد على المجتمع وعصيان. وكذلك العباقرة يفعلون، وتختلف حيواتهم الخاصة، عما يقولون من أشعار راقية نفيسة. والنفيس الغالي إنما يخرج من رحم المعاناة، فلولا شقاء هذا الشاعر ومعاناته

- 7) حسين نصار. (2003). مقدمة ديوان ابن الرومي (الإصدار 3). (تحقيق نصار حسين) دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة، مصر.
- 8) خرفي محمد صالح. (2005). بين الضفتين دراسة نقدية. (الإصدار د.ط.). اتحاد الكتاب الجزائريين. الجزائر.
- 9) ابن خلكان أحمد بن محمد. (1900). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (الإصدار 1). (تحقيق عباس إحسان) دار صادر. بيروت، لبنان.
- 10) خليل شرف الدين. (1984). الموسوعة الأدبية الميسرة ابن الرومي. (الإصدار د.ط.). دار مكتبة الهلال. لبنان.
- 11) ركان الصفدي. (2012م). ابن الرومي الشاعر المجدد (الإصدار د.ط.). الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة. سوريا.
- 12) ابن الرومي علي بن العباس. (2003). ديوان ابن الرومي (الإصدار 3). (تحقيق نصار حسين) دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة، مصر.
- 13) سيد قطب. (2003). النقد الأدبي أصوله ومناهجه (الإصدار 8). دار الشروق. القاهرة، مصر.
- 14) الصفدي خليل أيبك. (2000). الوافي بالوفيات (الإصدار د.ط.). (تحقيق أحمد الأرنؤاوط، ومصطفى تركي) دار إحياء التراث. بيروت. لبنان.
- 15) طه حسين. (2013). من حديث الشعر والنثر (الإصدار د.ط.). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.
- 16) عبد الله حسين. (2012). فلسفة النفس والشذوذ (الإصدار 4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.
- 17) عبد الله حسين. (2020). ظواهر نفسية وجنسية (الإصدار 4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.
- 18) العقاد عباس محمود. (2014). ابن الرومي حياته من شعره (الإصدار د.ط.). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.
- 19) عمر فروخ. (1981). تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية (الإصدار 4). دار العلم للملايين. بيروت، لبنان.
- 20) فرج عبد القادر طه، وآخرون. (د.ط.). معجم علم النفس والتحليل النفسي (الإصدار 1). دار النهضة العربية. بيروت، لبنان.
- 21) القيرواني الحسن بن رشيق. (1981). العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده (الإصدار د.ط.). (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) دار الجيل. بيروت، لبنان.
- 22) مارون عبود. (2015). الرؤوس (الإصدار 4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.
- المازني عبد القادر. (2010). حصاد الهشيم (الإصدار د.ط.). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.
- 23) المرزباني محمد بن عمران. (1995). الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء (الإصدار 3). دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان.
- 24) مطر سعد الدين، والوزة عبد الرحمن. (1962). التحليل في الأدب العربي (الإصدار 1). مكتبة لبنان. طرابلس الشرق، لبنان.
- 25) المهندس وجدي، ووهبة كامل. (1984). معجم المصطلحات في اللغة والأدب (الإصدار 2). مكتبة لبنان. بيروت، لبنان.

2.7 المقالات:

- 26) إبراهيم نعمة خليل. (1963). صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ابن الرومي. مجلة العربي الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء. (العدد53).
- 27) جردى سيليا. (1956). ابن الرومي. مجلة الأديب، لبنان، مطابع صادروريجاني، المجلد26 (العدد2).
- 28) عبد الرحمن شكري. (1939). ابن الرومي الشاعر المصور. مجلة الرسالة. القاهرة. مصر. لأحمد حسن الزيات. (العدد292).
- 29) عبد الرحمن عفيف (1977). ابن الرومي والمرأة. مجلة البيان. رابطة الأدباء الكويتيين. (العدد140).